التّشكيل الثّنائيّ: الرّؤية المفارقة في قصّة "علومة"لغي دي موبسان*.

د. نادية بوشفرة

جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم / الجزائر

تدرج قصة "**علومة**" في إطار الكتابة الجمالية لموباسان، هي أطول قصة للكاتب، يدور محكيها حول لقاء مزدوج: لقاء السارد بالمكان الذي هو البلد الجديد، والغريب الذي حل به وهو **الجزائر**، بلد متخلف ومختلف عن بلده الأصل في العادات والتقاليد والأعراف والجغرافيا والتضاريس والمناخ واللغة والدين والهوية والجنس وما إلى ذلك... وهناك لقاء آخر داخل مجال سرد هذا السارد، حينما يلتقي هذا الأخير بشخصية المستوطن "**أوبال**" .

وهو سارد من الدرجة الثانية، يتولى فعل السرد داخل القصة ليعرّف بخليلته، المرأة البدوية، الآتية من الجنوب ويروي للسارد الأول العلاقة التي جمعته بها، يشغل السارد الثاني حيزا واسعا من أحداث القصة بحيث لم يترك للسارد الأول سوى مجال تقديمها والتعليق عليها في النهاية.

هكذا ينمحي السارد الأول، فاتحا أبواب الحكي للسارد الثاني الذي عدّ في الوقت نفسه شخصية مبئرة على موضوع مبأرعليه، يتمثل في التركيز على شخصية "**علومة**" أي موضوع القيمة المرغوب في امتلاكه.

يبدو من قصة "**علومة**" أن السارد الأول هو سارد للمكان، مفتون بسحره، مملوك بطبيعته، حيث يقول: "**كنت منذ أكثر من شهر أتجول راجلا في تلك المنطقة الرائعة التي تمتد من الجزائر إلى شرشال، إلى "أورليون فيل"، إلى**

تيارت كانت منطقة غابية وقاحلة في الوقت نفسه، عظيمة ومتواضعة، تقابلك بها بين مرتفعين، غابات عميقة من الصنوبر تقع في أودية ضيقة، حيث تتدفق بها سيول الشتاء وتتسبب في سقوط أشجار ضخمة في المنحدرات... وتتسلق بجذوعها الميتة الأخلاف والنباتات التي تبعث حياة جديدة، وبها منخفضات في ثنايا الجبل المجهولة ذات جمال أخاذ، فضفاف شعاب منبسطة، تغطيها أشجار الدفلى، يعجز الخيال عن تصورها..."(ص**88**).

تلك الفتنة التي غذت نرجسية السارد(**الكاتب**) لدرجة التسليم بما لا يدع مجالا للشك في أن هذا المكان أي الجزائر هي جزائر فرنسية، أرضها معطاء، تدر الخيرات بلا مقابل، يصف السارد أشجار التوت وصفا آدميا، فالشجر وكأنه كائن إنساني، ينبغي تبجيله وتقديره وصونه، يقول: "**كانت أشجار التوت في طريقي تنحني علي بشكل غريب، وهي محملة بثمارها الأرجوانية التي كانت ملقاة هنا وهناك على الطريق. كانت لها هيئة الأشجار الشهيدة، حيث يسيل منها عرق دموي، لأنها كانت تتدلى في نهاية كل غصن بزرة شبيهة بقطرة دم. وكانت الأرض من حولها مغطاة بمطر العذاب هذا. وكانت الرجل تسحق حبات التوت فتترك على الأرض آثار الإجرام**" **(ص90)**.

الشجر، هو إذن، كائن حي لا جامد، إنساني لا نباتي وهي المفارقة الغريبة التي تجد مثيلتها في اعتبار العربي كائنا حيا حيوانيا لا إنسانيا... موقف موبسان ظاهر للعيان في قصة "**علومة**"، استخفاف واحتقار مقصودان ومعلن عنهما صراحة، كما سنرى على لسان السارد الثاني حينما ينعت أهالي المنطقة بمختلف تسميات البهائم واصفا وحشيتها وأشكالها..

قصة "**علومة**" لموبسان هي قصة مدرجة في أدب الرحلة، نجد فيها أن الشخصية الأولى والتي هي –لا محالة– **أنا الكاتب/السارد** مهيمنة على أنا الشخصية الثانية المقابلة لها والتي تحاول إيهامنا بواقع يحمل بعدين اثنين: بعد

واقعي حقيقي من جهة وبعد مخيالي مزيف من جهة أخرى، ولعل عودتنا إلى سيرة الكاتب الذاتية، تبصرنا بعدم تقدير المسافة بين البعدين، بل وعلى اعتبار ما سجله **موبسان** في قصصه هو انعكاس لواقعه، ذلك لما اتصف به من ضغينة وحقد على شعب أعزل، لاعترافه: "**إن نظام استعمارنا يتمثل في تدمير العربي وفي جلده دون توقف، في مطاردته وإثقاله بالبؤس والشقاء، سنرتقب له أيضا طرقا أخرى من التمرد والانقلاب...**"[1].

تنضاف إلى هذه الهمجية، همجية أخرى، أودت بحياته وهي سلوكاته غير السوية، فهو عبد لنزواته، والصور الإباحية التي تتخلل كتاباته لدليل واضح لعملية إسقاط شخصه على شخصيات محكياته. إنه الممثل والمتفرج في آن واحد، ممثل لنفسه ومتفرج لغيره، ذلك هو انعكاس لذاته ولذوات الآخرين.

ولأن هذا التحديد هو الخليق بأن يرسم لنا مسالك استكشاف نمطه الفني ونموذجه الإبداعي، فمن المفيد أن نفصل التشكيلات الثنائية ذات المفارقات العينية في الإظهار والإضمار لكذا خطاب.

العلامات المفارقة في قصة "علومة":

يجد الباحث في هذه القصة وللوهلة الأولى، أنه بصدد تقطيع **نص اجتماعي/ذهني**، مركب من ثنائية **الأنا والآخر**، **الأنا** المهيمنة وهي **أنا** السارد **وآخر** مهيمن عليه هو العربي "**الحقير**" في نظره. وبتوالي عدد القراءات ومن خلال عمليات إحصائية فاحصة للقرائن المسوغة لكذا خطاب، تتضح الرؤية عن إدراك ووعي لإيديولوجيا الكاتب، فهو يتعامل مع مقطوعات تبرز عددا من الثنائيات المفارقة وهي ثنائيات مختلفة كما ونوعا، تتمثل في:

- ثنائية **السيد/العبد**: متناولة في **20** مقطوعة.
- ثنائية **الإنسان**(العربي)/**الحيوان**: متناولة في **15** مقطوعة.
- ثنائية **الذكر/الأنثى**: متناولة في **15** مقطوعة.

- ثنائية **الجسد/الروح:** متناولة في **10** مقطوعات.
- ثنائية **المرأة/الطبيعة:** متناولة في **7** مقطوعات.
- ثنائية **الغالب/المغلوب** على أمره: متناولة في **7** مقطوعات أيضا.

ولأن المقام لا يسمح بالتفصيل في جميع الثنائيات، سنكتفي بتحليل النصف الأول من هذه الثنائيات بصفة دقيقة وموضوعية:

➢ **السيد/العبد:** من الواضح أن موبسان هو نصير للدعاية السامية، ونقصد السياسة الاستعمارية، مدافع عنها، يصرح بذلك قائلا: "**بالتأكيد أن الأرض بين أيدي (المستعمرين) ستقدم الكثير الذي لم تقدمه على أيدي العرب. وبالتأكيد أن الشعب البدائي سيختفي شيئا فشيئا**"[2]. تأكيد على عدم تشخيص العربي بإبادته، بل وبسحقه إلى درجة تشييئه أو حتى مسخه، يقول في مقطع من قصة "**علومة**": "**...أخرجت له فرنكين، وهما ثروة بالنسبة إليه، فانطلق وانطلقت على أثره. سرت في الليل البهيم مدة طويلة، أتبع هذا الشبح الباهت الذي كان يجري أمامي حافيا عبر المسالك الكثيرة الحجارة، حيث كنت أتعثر باستمرار**"**(ص91).**

وفي مقاطع متنوعة يصور هذه الثنائية ببراعة في الأداء والتركيب، يقول:

– "**والتفت نحو العربي الذي كان قائما على خدمتي – وكان فتى فارع الطول، أسمر، عيناه سوداوان تلمعان تحت عمامته– وقال له:محمد انصرف... وسأناديك عند الحاجة**" (ص **92**).

–"**ومن هذه القبيلة التي هي من فرع أولاد "تاجة" اخترت لخدمتي الخاصة، عند قدومي، فتى قويا هو ذلك الذي رأيته واسمه "محمد بن لمهر". وقد أخلص في خدمتي أشد الإخلاص**" (ص**93**).

–"**وكنت ألزمه التكلم بالفرنسية وآخذ منه دروسا في العربية، وهو ما كان ينتج عنه في الغالب لغة وسيطة لا مثيل لها في عدم التجانس**" **(ص95).**

-"...**محمد الذي ظل طوال الأمسية يؤدي خدمته كالمعتاد ويطوف حولي بوجهه الهادئ.**"**(ص95)**.

- "**في وقت مبكر...أقول في وقت مبكر، لعله وقت تباشير الصباح الأولى، أردت أن أطردها... ولكنها بمجرد أن فهمت قصدي تمتمت قائلة:"إذا طردتني الآن، أين تريدني أن أذهب؟سأقضي بقية الليل نائمة في العراء.اتركني أنام على الزربية عند رجل سريرك**"**(ص98)**.

- "**كان محمد يقف بالقرب من فراشنا، وثيابي على ذراعيه، ينتظر الأوامر، فقلت له: هات الفطور لعلومة ولي**".**(ص104)**.

- "**وأخذت يدي وقبلتها دلالة على الخضوع**"**(ص104)**.

- "**فوضعت كل رجال الخيام في حالة استنفار وأمرتهم بالبحث عنها حتى يجدوها**"**(ص112)**.

وطبعا، حوارات كثيرة بين السيد **أوبال** وعبديه "**محمد**" و"**علومة**" عشيقته العربية.

القصة طويلة، هي في أربع وثلاثين صفحة، شحنها السارد الأول كما السارد الآخر بثنائية **السيد/العبد** عن قصد دائما لاختيار موبسان اسم محمد خادما للمستوطن "**أوبال**" ولاسم "**علي**" خادم "**تريمولان**" في قصة "**ذات مساء في بجاية**" أو حتى لاسم "**محمد النذل**"في قصة "**السلسلة العربية**"* وهو الرقيب التركي الأصل، عميل الجيش الفرنسي والذي نكل أسوأ تنكيل بالجزائريين.

هي أسماء عربية إسلامية، لشخصيات تاريخية ودينية معروفة لكن النزعة الانتقامية التدميرية المتوغلة في خلايا الرجل، تطفو على سطح كتاباته محاولة سحق الشخصية العربية، حتى أن **موبسان** لم يكتف بإذلال شخصية محمد أو علي بل راح يوظف اسم محمد للهمجية والوحشية التي عرف بها الرجل الأعجمي التركي.

➢ **السيادة والعبودية:** سيادة الشعب الفرنسي وعبودية الشعب الجزائري... الأهالي وهم في نظر الفرنسيين ذوو صفات ثابتة ومعروفة، صفات سلبية يمتلكونها وهي موروثة بالفطرة لديهم: "كالكسل، الكذب، الوسخ، السفالة، النفاق، التساهل(**المسايرة**)، الإيمان بالقضاء والقدر، الرياء، الفظاظة... وهم عرب بدو لا علاقة لهم البتة بالحضارة، لقوله: "**إنه لا بد أن تعيش بينهم لكي تدرك كيف أن الكذب، الذي هو جزء من ذاتهم وقلبهم وروحهم، قد تحول عندهم إلى طبيعة ثانية وإلى ضرورة من ضرورات الحياة**" **(ص100)**.

➢ **الإنسان/الحيوان:** يحتوي النص على مناطق مضيئة وأخرى معتمة وهناك مناطق تتخللهما، فعلاوة على الثنائية الأولى الغالبة على نص القصة، نجد ثنائية **الإنسان/ الحيوان** التي هي ذات رباط وثيق بالثنائية الأولى. فصورة العربي لا ترد في محكيات موبسان إلا مقترنة بصورة البهيمة أو الدابة... تمييز عنصري عرقي واضح لا جدال فيه، تتمظهر تجلياته في عمليات توصيف له، تشير كلها إلى الشعور بالتقزز والاستنفار بل والشعور بالحقد والكراهية إزاءه ممارسات عدائية استعلائية واستعمارية قوّاها موبسان في نصوصه بشرعية خاصة هي واجب الاستثمار في البلد بغزوه اجتماعيا، ثقافيا، سياسيا وحتى دينيا.

تتجلى صور الحيوانية التي وسم بها الجزائري(ة) في قصة علومة، كما في المقاطع الآتية:

– "**وقد أخلص في خدمتي أشد الإخلاص. ولأنه لا يريد أن ينام داخل بيت لم يتعود عليه، فقد نصب خيمته على بعد خطوات من الباب، حتى أناديه من نافذتي عند الحاجة** "**(ص93)**.

– "**كانت منفعلة، رشيقة ومعافاة كبهيمة، مع سمت وحركات ولطائف، بالإضافة إلى رائحة كرائحة الغزال**" **(ص98)**.

– "..فقد روت لي تفاصيل غير مترابطة...تعكس رؤية كاملة لعالم الترحال كما انطبع في ذهن سنجاب كان يقفز من خيمة إلى خيمة ومن محطة ترحال إلى محطة ترحال أخرى، ومن قبيلة إلى قبيلة" (ص101).

– "لم أحبها، فتيات هذه القارة البدائية لا تحب، وبينهن وبين ذكورهن الطبيعيين، العرب، لا يمكن لزهرة بلاد الشمال الصغيرة الزرقاء أن تتفتح. إنهن أقرب إلى حيوانية الإنسان، إن لديهن قلوبا شديدة الغلظة" (ص105).

– "فتفحص مثل شرطي، أو على الأصح: تشمم مثل كلب وتمتم بعدها بصورة شديدة وفي استسلام: ذهب. لقد ذهب" (ص112).

– "كان من الممكن جدا أن أقتلها بالتأكيد، لو أنني فاجأتها وهي تخونني غير أنني كنت سأقتلها كما نقتل إلى حد ما، بدافع العنف الخالص، كلبا يظهر العصيان، وما كنت لأحس بتلك العذابات، تلك النار القارضة، ذلك الألم الفظيع، غيرة الشمال"(ص116).

– "قلت منذ قليل أنه كان من الممكن أن أقتلها كما يقتل كلب يظهر العصيان، وبالفعل فإنني كنت أحبها كما يحب المرء حيوانا نادرا جدا، كلبا أو حصانا يستحيل تعويضه، وقد كانت بهيمة تثير الإعجاب، بهيمة شهوانية، بهيمة للمتعة، لها جسم امرأة." (ص117).

– "وذات صباح دخل علي محمد بوجه غير معهود وفي عينيه تلك النظرة العربية القلقة التي تشبه نظرة القط الشزراء في مواجهة كلب" (ص117).

– "كان بدويا طويلا، يتداخل لون أعضائه العارية مع لون أطماره، من ذلك النوع الهمجي الفظ، بفوذيه البارزين وأنفه المعقوف وذقنه الهارب وساقيه الجافتين، كان هيكلا مديدا في هلاهل، بعيني ذئب مخادعتين" (ص. 118.119).

إنه **موبسان**، الكاتب السارد المشحون بالانفعالات المتناقضة: فهو إنساني لما يتعلق الأمر بإبراز وطنيته وتضامنه مع الجيش الفرنسي في حربه مع الألمان،

وهو عدواني شرس اتجاه الشعب الجزائري الحامل في نظره للخصوصية الحيوانية، هي "**الحقارة المطلقة**" وكفى.

- **الذّكر/الأنثى:** إنه الإنسان السيد الذكر الذي أتى غازيا الأرض ومن فيها من أجل الاستعباد والاستحواذ على الممتلكات المادية وغير المادية، الرغبة في امتلاك عشيقة خادمه، وهي رغبة سرعان ما تحققت عن طواعية من الكائن المستعبد.

المركزة الكولونيالية لم تتوقف عند حدود اختراق الأرض، إنما تعدتها إلى محاولة اختراق الأعراف والتقاليد، دونما شعور بالمسؤولية. هيمنة كلية للحالات والممتلكات.

ينظر السّارد بدافع اللذة إلى شخصيّة "**علومة**" **على أنها جسد بلا روح، تحفة جميلة تزين برجه، لبعض الوقت، إلى أن ينطفئ لهيب شهوته ويعوضها بأخرى، يصفها بإسهاب فيقول: "كان جسمها البض يلمع تحت شلال الضوء المتسرب عبر طرف الخيمة المرفوع، فبدا لي كأكمل عينة من عينات الجنس البشري التي رأيتها في حياتي. إن النساء هنا جميلات، وفارعات ومتناسقات الملامح والتقاطيع تناسقا نادرا..."(ص94).**

ويؤكد: "**إنني أهوى النساء... وقد اخترق ذاتي برق من ذلك المنظر وأحرقني، فبعث في عروقي ذلك الأوار القديم، المخيف، الذي كان السبب في وجودي هنا... كان الجو حارا، فقد كان ذلك في شهر جويلية، فقضيت جل الليل في النافذة وعيناي مركزتان على القبعة السوداء التي كانت ترسمها خيمة محمد على الأرض" (ص94).**

– "**أعترف بأنني بقيت طوال اليوم واقعا تحت التأثير العدواني لذكرى منظر البنت العربية المتمددة على الزربية الحمراء" (ص95).**

– "..كانت تناديني، تشدني إليها، تجردني من كل مقاومة تؤجج في نفسي أوارا عنيفا. كان صراعا قصيرا، صامتا، عنيفا، يدور بين الأحداق فقط، ذلك الصراع الأبدي بين الوحشين الإنسانيين: الذكر والأنثى، حيث ينتهي الصراع دائما بانهزام الذكر." (ص98).

– "اتخذت قراري في ثانية واحدة، حيث أن هذه الفتاة قد ألقيت هكذا بين يدي، فلماذا لا أبقيها وأتخذ منها شبه عشيقة وأمة، أخفيها داخل بيتي على شاكلة نساء الحريم؟ ويوم أملها سيكون من السهل علي في جميع الأحوال أن أتخلص منها بطريقة أو بأخرى، لأن هذه المخلوقات في الأرض الإفريقية، هي على وجه التقريب ملك لنا جسدا وروحا" (ص99).

– "وحينما جاءت أيام العيد الثلاثة، احتفلت بها بطريقتي الخاصة وهكذا نسيت رمضان" (ص111).

– "وعادت حياتنا إلى ما كانت عليه من قبل، وعدت أكابد جاذبية هذه البنت الغريبة أكثر فأكثر، جاذبية الجسم الخالصة، التي كنت أحس نحوها في الوقت ذاته بنوع من الاستخفاف الأبوي" (ص116).

– "لقد كانت كشيء من أشياء بيتي، من حياتي، كعادة جد رائعة أتمسك بها ويحبها الرجل الشهواني في ذاتي، الرجل الذي ليس فيه إلا عينان وحواس"(ص117).

إنها بعض الشواهد التي تفسر نعوتا **شهريارية** لشخصية السيد الذكر "**أوبال**" بصفات تكريمية له، لتميزه بالعقل والشجاعة والفحولة والسلطة، تقابلها نعوت **شهرزادية** لها صفات تحقيرية تتسم بالكذب والتقلب والمسايرة والعجز المعرفي مع اتصاف بالدونية والميوعة والانفعال والتذبذب والميل إلى السحر والشعوذة.

"للعلم فإن النظام الاستعماري لا يفرض نفسه بواسطة انتقال بسيط للبنيات السياسية أو غيرها، إنه يصاحب دوما سلسلة من الحكايات والأوصاف والتمثلات التي تشرع له هذا الانتقال".

هكذا تبقى القراءة النصية التي حاولنا مقاربتها مقاربة غير نهائية، تبقى مجرد محاولة للتجريب في البحث عن الأدبية في التاريخ والتاريخية في الأدب، بغية التعريف والتفكير في قضايا متعلقة أساسا بذاكرة شعب، بتاريخ شعب وبعدوانية شعب آخر، آخر محتفي بعدته الاستعمارية وأنا جمعية تعاني من أجل البقاء... بمعنى آخر القصة تفصح من داخلها عن صيغة إنتاجها، بمعطيات تتطلب النقد والتعليق... من هذا المنطلق أعتبر قراءة قصة "**علومة**" عملية تفترض قارئا واعيا للفعل القصصي بغية الإحاطة بالمعنى في بنيتها العميقة، وبالعلامات الدالة المهيكلة لها.

الهوامش:

* أحمد منور، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، وزارة الثقافة، ط1، الجزائر، 2007، ص88.

1- Guy de Maupassant, Au soleil, ollendorff, paris, 1902, p.p :45.46, une référence tirée du net. « Notre système de colonialisation consistant à ruiner l'arabe, à le dépouiller sans repos, à le poursuivre sans merci et à le faire crever de misère, nous verrons encore d'autres insurrections ».

2-Op, cit , p218.

3- أحمد منور، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ص91.

* السلسلة العربية هو عنوان غامض، لا يزول غموضه إلا بقراءتك لنص القصة ويعني بها:الحبل الطويل الذي لفه محمد النذل على مجموعة من الأبرياء برؤوسهم وأيديهم وهم في عددهم يتجاوزون الخمسين رجلا، كما حلقات السلسلة المعقودة على الرقبة، ثم ربطهم كما الخرفان بعدما هجم عليهم هذا الرقيب في خيمهم وأسرهم." قام بصنع سبحة من الأسرى أو على الأصح من المشنوقين" ص153.